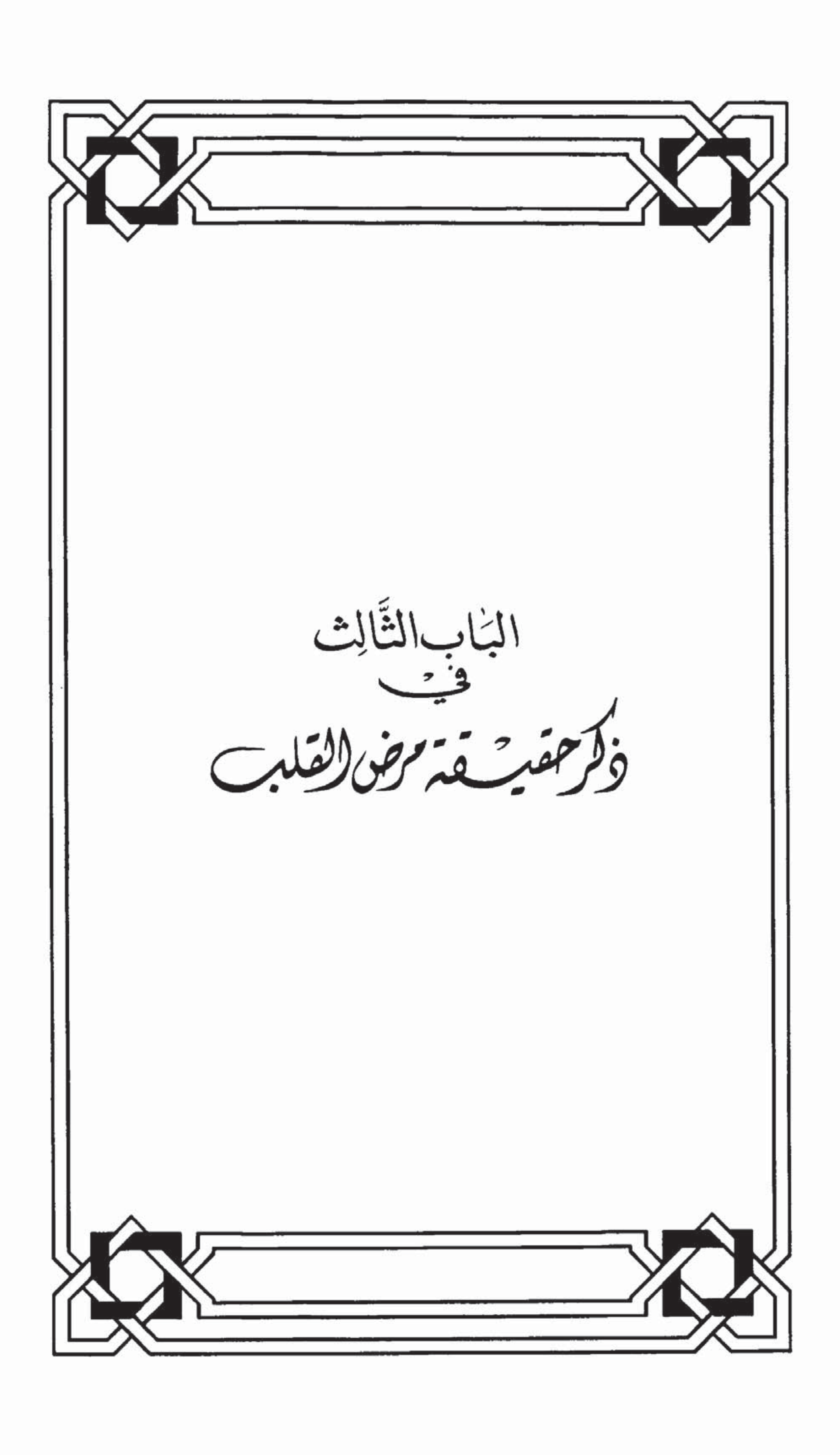


الباب الثالث
في
ذكر حقيقة مرض القلب

الفصل الأول

حقيقة مرض القلب

[ذكر مرض القلب في آيات كريمة]:

قال الله تعالى عن المنافقين:

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أمرهن تعالى أن لا يَلِنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللَّيان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يَخْشَنَّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً.

وقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦٠][١].

[اختلاف موقف القلوب أمام الأمر الواحد]:

وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

---

(١) لعل مراد المؤلف من ذكر هذه الآيات الكريمة، هو بيان وإلقاء الضوء على الذين في قلوبهم مرض.

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر : ٣١].

أخبر سبحانه وتعالى عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر.

فذكر سبحانه خمس حكم :

فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

وقوة يقين أهل الكتاب، فتقوى أنفسهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم :

- فتنة الكفار.
- ويقين أهل الكتاب.
- وزيادة إيمان المؤمنين.
- وانتفاء الريب عن المؤمنين، وأهل الكتاب.

الخامس : حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول : ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة : ٢٦].

وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها :

قلب يفتتن به كفراً وجحوداً.

وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً.

وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع:

- إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم الريب مقرراً لليقين ومؤكداً له، ونافياً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه.

- وإن رجعا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدمُ الريبِ عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به. لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد في صدق الرسول، ظهرت فائدة ذكره.

والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته.

[وشفاء لما في الصدور]:

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغَيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذين الداءين. فقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢].

ووصف الرسول ﷺ خلفاءه بضدهما فقال ﷺ: (عليكم بسنّتي

وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)[1].

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تاماً لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

فإذا بَلَّ[2] من داءٍ به ظَنَّ أنَّهُ نجا، وبِهِ الدَّاءُ الَّذي هو قاتِلُهُ

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والأظهر أن (من) ههنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (٤٢ ـ ٤٤)؛ والدارمي (٩٥)؛ وصححه الألباني.

(٢) بل وأبل من مرضه، إذا تعافى منه وبرأ.

الفصل الثاني

أسباب مرض الجسم والقلب

[بيان أمراض الجسم وطرق علاجها]:

ولمَّا كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو: خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية.

فإما أن يذهب إدراكه بالكلية، كالعمى والصمم والشلل.

وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه.

وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلوَ مُـرّاً، والخبيث طيباً، والطيب خبيثاً.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة. وسبب هذا الخروج عن الاعتدال: إما فساد في الكمية، أو في الكيفية.

فالأول: إما لنقص في المادة، فيحتاج إلى زيادتها. وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوي بمقتضى ذلك.

ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة. وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة.

فأما حفظ القوة: فإن الله سبحانه تعالى أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قدم، والمريض إذا برئ، حفظاً لقوتهما عليهما، فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشـقة السفر، والصوم يضعفها.

وأما الحمية عن المؤذي: فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل، إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم حِمْية له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له في باطنه.

وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه سبحانه وتعالى أباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرتُ إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفراً قليلاً، أو كما قال.

[القلب كالجسد في أمراضه ومضاداتها]:

وإذا عرف هذا، فالقلب محتاج:

إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات.

وإلى حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وأنواع المخالفات.

وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له،

فلا يرى الحق حقاً، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب.

ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠] أي شك. وتارة بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالأول: مرض الشبهة.

والثاني: مرض الشهوة.

والصحة تُحفظ بالمِثْل والشَّبَه، والمرض يدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح: من يسير الحر، والبرد، والحركة، ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء: من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة: فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته، وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك، بأن يحصل له ما يقوي قوته، ويزيل مرضه، والله الموفق.

خلاصة أمر القلب:

القلب يمرض كما يمرض البدن.

وشفاؤه: في التوبة والحمية.

ويصدأ، كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر.

ويُعرى، كما يعرى الجسم، وزينته التقوى.

ويجوع ويظمأ، كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه: المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة[1].

* * *

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب الفوائد، ص١٨٣.